الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة
الندوة الوطنية بمناسبة يوم العلم حول 'دور جمعية العلماء المسلمين في إحياء المرجعية الدينية والوطنية في الجزائر'
المنعقدة يوم 16 أفريل 2023م بقاعة المحاضرات الكبرى عبد الحميد بن باديس

درس تفسير القرآن الكريم عند ابن باديس ودوره في المحافظة على المرجعية الوطنية

He studied the interpretation of the Holy Qur'an by Ibn Badis and his role in preserving the national authority

د. عبد الرحمن خلفة
أستاذ محاضر أ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة

ملخص

تعالج هذه المداخلة موضوع درس تفسير القرآن الكريم عند ابن باديس ودوره في المحافظة على المرجعية الوطنية للجزائريين، وذلك للإجابة عن إشكالية تتمحور جول مدى إسهام دروس التفسير الباديسية في مثل هكذا دور تاريخي زمن الاستعمار، بهدف إبراز جهود ابن باديس في المحافظة على هوية الأمة الجزائرية وإسهامه في بعث روح الانتماء والاعتزاز، للتصدي لمحاولات طمس الهوية.

وقد اعتمدت على منهج الاستقراء والتحليل وأحيانا المقارنة، واستخلصت ستة مظاهر تبرز فعلا دور الدرس التفسيري في تحقيق ما قلناه، أهما دعوته للتمسك بالدين والوحدة والاجتماع واللغة العربية والتمسك بالكتاب والسنة والمرجعية العقدي ة السليمة والتميز بالشخصية

summary

rvention deals with the subject of the study of the interpretation of the Holy Qur'an by Ibn Badis and his role in preserving the national reference for Algerians. This is to answer a problem centered around the extent to which the Badisan interpretation lessons contributed to such a historical role during the colonial era. With the aim of highlighting the efforts of Ibn Badis in preserving the identity of the Algerian nation and his contribution to the creation of a spirit of belonging and pride, to counter attempts to obliterate the identity,

It relied on the method of induction, analysis, and sometimes comparison. And I extracted six manifestations that really highlight the role of the exegetical lesson in achieving what we said, the most important of which is its call to adhere to religion, unity, society, the Arabic language, adherence to the Book, the Sunnah, sound doctrinal reference, and excellence in personality

توطئة:

إن الأمة الجزائرية لم تفقد هويتها عبر التاريخ التي تشكل مرجعيتها الوطنية وامتداداها في الفضاء العربي الإسلامي؛ لاسيما ما تعلق منها بالعناصر الأساسية المشكلة لتلك الهوية؛ الإسلام والعربية ووحدة الأمة، وإن شابها بعض التعتيم في بعض فترات التاريخ؛ حيث تعرضت لمحاولات طمس كثيرة ومساع حثيثة لزحزحة الجزائريين عن هويتهم وتعتيم الرؤى حول طريق العودة للمرجعية الوطنية والتمسك بها، محولات قادها ساسة ورجال دين مسيحيون ومثقفون أوربيون من الذين اتكأوا على الالة العسكرية التي لم تتوان في تهديم دور العبادة وتحويلها بعضها إلى كنائس وغرس ثقافة جديدة غريبة عن هذه الديار، روحها مسيحية ولسانها فرنسي، استهدفت مقومات هذا الشعب وبتره عن تاريخه بل التشكيك في هذا التاريخ وحمل أبنائه على التملص التدريجي منه والاستحياء من التمسك بلغته التي جرمت في عقر دارها، ودينه الذي حوصر؛ لكن قيض الله تعالى علماء ومصلحون قاموا مقاومة ثقافية هذا المشروع الاستدماري، حتى خاب ظن المستعمر فسمع بعد قرن من الاحتلال شعارا يصدع من أعماق الجزائر: الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا، وكان من بي ن وأهم هؤلاء المصلحين الإمام عبد الحميد بن باديس، الذي توسل بكل الطرق لإفشال مشاريع الاستعمار والإبقاء على الإسلام حيا في نفوس الجزائريين واللغة العربية متداولة فيما بينهم والوحدة الوطنية يسري حبها في دمائهم، والحيلولة دون ذوبانهم في بوتقة الثقافة الاستعمارية ومخططاتها أو الافتتان بها، وقد كانت مجالس العلم والوعظ والإرشاد من أهم وسائله لأنه أكثر التصاقا بالشعب وأجدى لاسيما انه اتخذ أسلوب المشافهة لشعب جله أمي، وكانت مجالس تفسير القرآن الكريم التي دامت ربع قرن أهم هذه الوسائل التي نجحت ايما نجاح، ومن خلال تصفح ما بقي من هذا التراث التفسيري الباديسي نجد أنه عمل على ابن باديس عمل على الحفاظ على عناصر الهوية المشكلة للمرجعية من خلال مظاهر عدة أهما:

أولا–الثبات على الدين وعدم الافتتان بما هو عليه حال غير المسلمين؛ إن وضعية الشعب الجزائري المتواجد في ظل الاستعمار الفرنسي المغلوب على أمره، قد يكون أكثر الشعوب الإسلامية عرضة للفتنة بدينه، بحكم احتكاكه بالغرب عموما وبفرنسا خصوصا، حيث يلاحظ واقعيا أن هؤلاء أكثر تحضرا وأعرق عمرانا وأنظف بيئة وأكثر اتقانا للعمل لذلك حرص ابن باديس على تثبيت الجزائريين على الإسلام بكشف أسباب التطور الظاهري للغرب وأسباب تأخر المسلمين فقال عند تفسير قوله تعالى: ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ

نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)) [الإسراء:١٨ و١٩].

فقال: (فالعباد-إذن-على أربعة أقسام:

١- مؤمن آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة.

٢- ودهري تارك لها، فهذا شقي فيهما.

٣- ومؤمن تارك للأسباب، فهذا شقي في الدنيا وينجو-بعد المؤاخذة على الترك-في الآخرة.

٤- ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا ويكون في الآخرة من الهالكين.

فلا يفتنن المسلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم. فإنه لم يكن تأخرهم لإيمانهم، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو سبب تأخرنا من ضعف إيمانهم. ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم، بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة. وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الأول بإيمانهم وأعمالهم. وما صاروا من أهل القسم الثالث إلاّ لما ضعف إيمانهم وساءت أعمالهم وكثر إهمالهم؛ فلا لوم-إذن-إلاّ عليهم في كل ما يصيبهم، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم)[1].

ثم أن المسلمين سبق لهم أن بنوا حضارة ما يعني أن سبب تخلفهم ليس راجعا للدين بل لأسباب وعوامل أخرى تتعلق بالأخذ بالأسباب؛ فقال: (وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً: فقد تقدموا حتى سادوا العالم، ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم. وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب فخسروا دنياهم، وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليهم اليوم من الذل والانحطاط. ولن يعود إليهم ما كان لهم إلاّ إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب. فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم، لما فيها من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وأن غيره تقدم بعدم إسلامه؛ لأن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك أو الترك للأسباب. ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الإسلام، لكان-مثل سالف أيامه-سيد الأنام)[2].

ولذلك يؤكد أن الفتنة مشتركة بين الأمتين أمة الإسلام وأمة الكفر؛ فرأى عند تفسير قوله تعالى: (((وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)) [الفرقان: ٢٠]: (كما يفتن الفرد بالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة: من ذلك أننا-معشر الأمة الإسلامية-قد فتنا بغيرنا من أمم الغرب، وفتنوا هم أيضاً بنا: فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدنيوية والأخروية ولكن حيثما كنا-إلاّ قليلاً-لسنا سعداء لا في مظاهر تديننا، ولا في أحوال دنيانا.

ففي الأولى: نأتي بما يبرأ منه الإسلام، ونصرح بأنه من صميمه.

وفي الثانية: ترانا في حالة من الجهل والفقر والذل والاستعباد يرثي لحالنا الجماد.

---

[1]- ابن باديس عبد الحميد، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، المحقق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية بيروت-لبنان. ط1، 1416هـ/1885م، ص 51.

[2]- ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 59.

قلما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام، ويسخرون منه، إلاّ من نظر منهم بعين العلم والإنصاف، فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام. فكنا فتنة عظيمة عليهم، وحجاباً كثيفاً لهم عن الإسلام. فكنا–ويا للأسف–فتنة للقوم الكافرين والظالمين. وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة، وتقدم علمي وعمراني، فننظر إلى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء، حتى معائبهم ومفاسدهم، ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز. إلاّ من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير، هو عندنا في ديننا وتاريخنا، وأن ذلك هو الذي تقدموا وسادوا به. وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته، وأن ضرره فيهم هو ضرره، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه، فكانوا فتنة لنا حتى ينظر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر فتسلبه إدراكه فيغدو لا يفرق بين اللب والقشور[3].

ولكي يزيد المسلمين ثقة في غدهم ويبعث فيهم الأمل من جديد باعتبارهم أمة سقطت لكنها لم تمت ويرشدهم ويستنهض فيهم الهمم من جديد؛ ذكرهم بحال القرى والمدائن التي قص القرآن الكريم قصصها علينا فقال: (القرى التي قضي عليها بالهلاك والاستئصال هذه، قد انتهى أمرها بالموت، وفاتت عن العلاج مثل عاد وثمود من الأمم البائدة. وأما القرى التي قضي عليها بالعذاب الشديد، فهذه لا تزال بقيد الحياة فتداركها ممكن، وعلاجها متيسر: مثل الأمم الإسلامية الحاضرة: فمما لا شك إن فينا لظلمًا، وعتواً وفساداً وكفراً بأنعم الله، وإننا من جراء ذلك لفي عذاب شديد. ولا نعني بهذا أن الأمم الإسلامية مخصوصة بهذا، بل مثلها وأقوى منها في أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الأرض. وإن لهم لقسطهم من العذاب الشديد. وإذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابهما؛ فلأنه لكل أمة أجل، ولما يأت ذلك الأجل بعد؛ فإذا جاء لا يستأخرون سعة ولا يستقدمون، قد ربط الله بين الأسباب ومسبباتها خلقاً وقدراً بمشيئته وحكمته، لنهتدي بالأسباب إلى مسبباتها، ونجتنبها باجتناب أسبابها. وقد عرفنا في الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقي تلك الأسباب فنسلم، أو نقلع عنها فننجو؛ فإن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب. وقد ذكر لنا في كتابه أمة أقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعد ما كاد ينزل بها، ليؤكد لنا أن الإقلاع عن السبب ينجي من السبب، فقال تعالى: ((إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)) [يونس: ٩٨] فمبادرتهم للإيمان وإقلاعهم عن الكفر، كشف عنهم العذاب. وأرشدنا في ضمن هذا العلاج الناجع في كشف العذاب، وإبطال أسبابه، وهو الإيمان. في قوله تعالى قبل هذا: ((فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا)) [يونس: ٩٨]. أي نجاها من العذاب. وذكر قوم يونس دليلًا على ذلك. وأرشدنا إليها أيضاً في قوله تعالى: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) [الأعراف: ٩٦]، فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب. ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلاّ إذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات، فجعل كل

[3]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 167–168.

واحد ذلك نصب عينيه، وبدأ به في نفسه، ثم فيمن يليه ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه، ثم جميع أهل ملته. فمن جعل هذا من همه، وأعطاه ما قدر عليه من سعيه، كان خليقاً أن يصل إلى غايته أو يقرب منها)[4].

ومحاولة بث التفاؤل في نفس أبناء الأمة لاستعادة سيادتها وحفظ هويتها هو ديدن المصلحين في كل عصر؛ لأنه لا أمل في إصلاح أو استقلال أمة إذا لم تتشبع أولا بالأمل وتعيد الثقة في نفسها وتاريخها وحاضرها، وتشعر بالعزة والندية مع مستعمرها؛ أما إن ظلت تشعر بالدونية فلن تتلمس طريقها نحو الحرية؛ لأن الحرية تبدأ من تحرير الذات أولا، وهي بالأساس شعور يغمر النفس، ثم تتطلع إلى تحقيقه في واقعها، ولذلك كان ابن باديس في تفسيره مصلحا مفعلا للقرآن الكريم في نفوس أبناء الأمة الجزائرية، كما اشتغل المصلحون الذين عاصروه أو سبقوه قليلا أو جاءوا بعده على إذكاء الرغبة في الحرية والتحرر في نفوس أبناء الأمة المسلمة لتستعيد دورها الحضاري وتتجاوز مرحلة الضعف والتخلف.

ولا شك أنه رغم سفرية ابن باديس نحو المشرق وتواصله مع المصلحين هناك بشكل مباشر أو غير مباشر على غرار محمد عبده ورشيد رضا والكواكبي وحسن البنا واستفادته منهم إلا أن المدرسة التونسية الإصلاحية كان لها أثر كبير في تشكيل معالم مشروعه الإصلاحي ومنهجه في النهضة بالأمة الجزائرية، لأنه ابن الزيتونة وفيها درس ودرّس وتعرف على الكثير من المشايخ والمصلحين،

وقد رصد بعض الباحثين جملة خصائص ومرتكزات للحركة الإصلاحية في تونس منها:

1- أن الحركة ذات النزعة الإصلاحية في تونس قامت انطلاقا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت مزامنة لمثيلات لها في بلدان عربية وإسلامية أخرى مثل مصر والمغرب. وقد كانت جميعها في شروط الصدمة التي عرفها العالم الإسلامي مع ظهور الأطماع الهيمنة الأوربية في مرحلة أولى، ثم مع النفاذ الاستعماري لأراضي البلدان الإسلامية بعد ذلك.

2- ظهرت فكرة الإصلاح لدى المفكرين المسلمين ممن كانوا في الجامعات التقليدية التونسية والمصرية وغيرها في محاولة للبحث من داخل الثقافة الإسلامية ذاتها عن فهم أسباب التأخر، والبحث في نفس الوقت عن سبل الخروج من تلك الحالة لكي يأخذ العالم الإسلامي المكانة التي يستحقها بفضل ما كان له من مساهمة في تطوير الحضارة الإنسانية بصفة عامة.

3- لم تكن الحركة الإصلاحية في تونس عامة، وفي جامعة الزيتونة بصفة خاصة، منعزلة عن مثيلاتها في البلدان القريبة مثل مصر والمغرب. وكانت هناك زيارات متبادلة وتبادل متعدد للرأي والتجارب.

4- تميزت الحركة الإصلاحية في تونس، حين نقارنها بمصر مثلا، بعدم وقوف دعاة الإصلاح فيها عند الدعوة فحسب، بل انخرطوا في العمل السياسي الحكومي لتطبيق الأفكار الإصلاحية، وقد ظهر هذا في حالة خير الدين التونسي. كما انخرط بعض المصلحين في العمل من أجل تأسيس جمعيات تعمل على تحقيق بعض

[4]- ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 125-126

الأهداف، بل والعمل من أجل تأسيس نقابات تدافع عن حقوق الفئات العاملة، كما تجلى ذلك في شخصية الطاهر حداد. وهذا الانخراط في الحياة المجتمعية العملية مظهر قوة في الحركة الإصلاحية في تونس.

5- اتسمت الحركة الإصلاحية في تونس بما عرفته أيضا في بلدان إسلامية أخرى من انطلاقها في تحليل مجتمعاتها من الثقافة الإسلامية التقليدية التي تخرج دعاتها من جامعاته. وحيث إن هذه الثقافة كانت قد تعثرت في تطورها منذ القرن الرابع عشر، فإن معطياتها لم تكن كافية لمواجهة المشكلات التي يطرحها العصر. وكما أكدنا مع عبد الله العروي، فإن هذه الحركة التي ظهرت في زمن كانت قد تطورت فيه علوم كثيرة لم تستفد من كل ما كان يتيحه لها ذلك العصر من أجل تحليل تأخر المجتمع والبحث عن سبل إصلاح أوضاعه[5].

6- علاوة على وجود مؤثرات خارجية؛ مشرقية وغربية، وأخرى داخلية[6].

7- لكن إضافة إلى المؤثرات العربية في المشروع الباديسي فإن ثمة مؤثرات أخرى كجلية جزائرية، فرضها الواقع الجزائري المفروض على الجزائريين؛ حيث الاستعمار الاستيطاني المختلف عن غيره في تونس والمغرب والمشرق، ووجود بعض طرق صوفية منحرفة وانتشار للأمية وسط الشعب، ففي هذا الجو كان مضطرا إلى وضع مشروع يتماشى والواقع× ففيما استفاد من الثقافة العصرية بحكم احتكاكه بفرنسا وعلومها ومدنيتها، واطلاعه على الحضارة الغربية، ووقف على عللها ونقاط ضعفها، فقد عمد إلى الدعوة إلى منهج إصلاح ونهوض بالأمة يعيد لها ثقتها بنفسها ويقلل من قوة فرنسا وحضارتها في مرأي الجزائريين وبصيرتهم، لذلك انطلق من النفس لإصلاحها أولا. فقال: (ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك، وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات. ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد ولنشرع في ذلك، غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا؛ ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا، فبدوام السعي واستمراره، يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله. وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا. ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق، ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى. وليس هذا عن العاملين ببعيد، وما هو على الله بعزيز) [7]

ثم ينتقل للتقليل من قوة ووهج الحضارة الغربية وتجليتها في الجزائر من خلال الاقدام السوداء وما كانوا يظهرون بمظاهرها من رقي عمراني نظافة بيئة وحسن هندام وطلاقة لسان، فيزيدهم جرعة أمل أكثر في غد أفضل فيقول: (إن المطلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء، وأحست بالعذاب، وأخذت في العلاج، وإن

---

[5]- محمد وقيدي، الإصلاح والتنوير، (مقال)، ص45-48، ملتقى الاجتهاد والتجديد بتونس

[6]-للاطلاع على هذه المؤثرات ونتائج التفكير الإصلاحي حينها يراجع رشاد الإمام، التفكير الإصلاحي في تونس في القرن التاسع عشر إلى صدور عهد الأمان، ص 19 وما بعدها، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ط2، 2010م

[7]- ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 126-127

ذلك، وإن كان يبدو –اليوم– قليلاً، لكنه –بما يحوطه من عناية الله، وما يبذل فيه من جهود المصلحين– سيكون بإذن الله كثيراً. وعسى أن يكون في ذلك خير لأمم الأرض أجمعين)[8]

وبخلاف خير الدين التونسي فقد زهد ابن باديس الأمة الجزائرية في فرنسا والحضارة الغربية؛ بينما رغب خير الدين التونسي التونسيين فيه !

فقد ألف كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لهذا الغرض؛ فقال: (إن الباعث الأصلي على ذلك أمران آيلان إلى مقصد واحد: أحدهما: إغراء ذوي الغيرة والحزم، من رجال السياسة والعلم، بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة، وترويج سائر الصناعات، ونفي أسباب البطالة. وأساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد من الأمن، المتولد منه الأمل، المتولد منه إتقان العمل المشاهد في الممالك الأوروباوية بالعيان وليس بعده بيان، وثانيهما: تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغد، الموافقة لشرعنا، بمجرد ما انتفش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي أن يهجر، وتآليفهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر، حتى أنهم يشددون الإنكار على ما يستحسن شيئاً منها، وهذا على إطلاقه خطأ محض. فإن الأمر إذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً موافقاً للأدلة، ولاسيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا، فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله..)[9].

فخير الدين يغري بالأنموذج الغربي وابن باديس ينفر منه، وقد يبدو الأمر مستغربا؛ لكن لو نظرنا إلى الظروف المحيطة بكل مصلح من المصلحيْن وهدفه من الإصلاح لزال العجب؛ فابن باديس كان يستهدف تحرير الأمة الجزائرية واستقلالها عن فنسا نهائيا واستعادة سيادتها وهويتها، فلا يعقل والهدف هذا أن يرغبهم في مدنيتها ونظم حكمه وعمرانه، بل سيحرص على إظهار كل غيب ونقص ينفر عنها ولذلك حرم على الجزائريين التجنس بالجنسية الفرنسية، بينما كان خير الدين ينطلق من واقع تونسي مختلف حيث كان لتونس استقلالها وإن كان منقوصا ولها هويتها و ووطنها ونظام حكمها وهويتها وشهبها غير مختلط مع المستوطنين والعلم والعمران والاجتماع فيها متوصل كما كان تاريخيا، فلم يكن إذن يستهدف صداما مع فرنسا، بل كان غرضه الدفع بتونس نحو التقدم والتمدن والتحضر، و لا ضير حينها أن يستفيد من مختلف التجارب العالمية الناجحة، فرغب التونسيين في النماذج الغربية التي بدأت تتجه نحو الدولة الدستورية وتوطد دعائم الحرية والرقابة والمساءلة والمسؤولية وتتجه لنشر العلم والعمران في ربوع أوطانها.

لكنهما؛ أعنى ابن باديس وخير الدين يتفقان في جوهر الهدف، وهو السعي إلى تحقيق الحرية، فالأول يتوخى التحرر من الاستعمار والتخلف، والثاني يتوخى التحرر من الاستبداد والتخلف.

---

[8]– ابن باديس عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 127.

[9]– خير الدين التونسي، كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ص 5–6، ط1، 1383هـ، مطبعة الدولة بحاضرة تونس

ثانيا–الحفظ على المرجعية العقدية بالتحذير من الخرافات والبدع حفاظا على الطريقة السنية وصفاء التوحيد:

لقد كان من أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين محاربة البدع والخرافات التي تنشرها بعض الطوائف الدينية الإسلامية[10]، وكانت من أسباب ما هي عليه الأمة الجزائرية من تخلف وسوء فهم للدين وقبول للاستعباد والاستعمار، فتحرير الجزائري من هذه الخرافات والبدع أمر ضروري لتحضيره للتحرر الفكري والسياسي، لذلك كان خطاب ابن باديس في مجالسه التفسيرية متناغما وهذا المسار متوخيا تحقيق هذا المقصد فأكثر من التشنيع على هذه الخرافات والتحذير منها والدعوة إلى تنقية العقيدة منها؛ من ذلك قوله: ((من الناس من يخترع أعمالاً وأوضاعاً من عند نفسه، ويتقرب بها إلى الله، مثل ما اخترع المشركون عبادة الأوثان بدعائها، والذبح عليها، والخضوع لديها، وانتظار قضاء الحوائج منها ... وهم يعلمون أنها مخلوقة لله، مملوكة له، وإنما يعبدونها–كما قالوا–لتقربهم إلى الله زلفى وكما اخترع طوائف من الهنود أنواع التعذيب بقتل أنفسهم وإحراقها طاعة–زعموا–وتقربًا. وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص، والزمر، والطواف حول القبور، والنذر لها، والذبح عندها، ونداء أصحابها، وتقبيل أحجارها ونصب التوابيت عليها، وحرق البخور عندها، وصب العطور عليها... فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها، لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور)[11]. و عند تفسير قوله تعالى: ((قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)٥٦( )) الإسراء قال: (لما ثبت شرعاً، أن الدعاء عبادة– فمن دعا شيئاً فقد عبده ولو كان هو لا يسمي دعاءه عبادة– جهلاً منه، أو عناداً–؛ لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره لا بتسمية المكلف واعتباره. ألا ترى لو أن شخصاً قام للصلاة بدون وضوء مستحلا لذلك، فلما أنكرنا عليه قال: أنني لا أعتبر هذه الأفعال والأقوال عبادة، ولا أسميها صلاة. أترى ذلك يجيز فعله، ويدفع عنه تبعته؟؟ كلا!! ولا خلاف في ذلك بين المسلمين. بل قد حكموا بردته إن كان يفعل ذلك ويراه حلالًا، لأنه يكون قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة. فالداعي لغير الله تعالى يطلب منه قضاء حوائجه، قد عبد من دعاه وإن لم يعتبر دعاءه عبادة؛ لأن الله قد سماه عبادة. وإذا استمر على فعله ذلك مستحلا له بعدم تعليمه وإرشاده، يكون قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، وهو أن العبادة–والدعاء منها–لا تكون إلاّ لله فيحكم بردته، نظير مستحل الصلاة بلا وضوء، بلا فارق.) [12]

وبعد أن قرر هذا المعنى وجه كلامه للجزائريين خصوصا وللمسلمين عموما ليلفت النظر إلى حالنا وما يقع فيه بعض الجزائريين من خرافات قد تفضي بهم إلى الشرك؛ لاسيما العامة منهم؛ فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم

---

[10]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 127.

[11]– ابن باديس عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 55–56.

[12]– نص القانون الأساسي لجمعية العلماء الجزائريين في الفصل الرابع على أن (القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل)، راجع القانون الأساسي لجَمْعِيَةِ العُلَمَاءِ المسْلِمِينَ الجَزَائِرِيِّينَ في موقع: عبد الحميد بن باديس: https://binbadis.net/archives/470

: موقع في ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 119

الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون. ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها، ويدقون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميتهم، بأنهم خدامهم وأتباعهم، فكيف يتركونهم؟؟ وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس النذور، وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجه، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم!! فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين، وإن لم يعتقدوها عبادة؛ إذ العبرة باعتبار الشرع، لا باعتبارهم. فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً، حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال[13] إلى أن يصل إلى تحذير القراء للجريدة التي كتب فيها هذه المقاطع من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله، وليحذروا غيرهم منه. ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين، بما استطاعوا، لأنهم طبعا عالمون؛ عسى أن يتنبه الغافل، ويتعلم الجاهل، ويقلع الضالون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج؛ وبذلك يكونون قد أدوا أمانة العلم، وقاموا بفريضة النصح، وخدموا الإسلام والمسلمين[14]

وقد كشف بعد رؤية وفحص لواقع المسلمين أن في العالم الإسلامي كله يومئذ طائفتين من المؤمنين، يتنازعان خطة الهداية والتذكير والإصلاح. ولكل منهما–في سلوكها للقيام بتلك الخطة–سبيل. وكل منهما تدعي أنها على الصواب، وأنها الأحق والأولى بنفع العباد ولأنه ربما يرى أن الصواب عند إحدى الطائفتين دون الأخرى، فقد رأى أن يسبر أيهما أهدى سبيلا، فقام بتطبيق فصل الفرقان عليهما، لينظر: كيف يفرق ما بينهما ومن هي المصيبة أو المخطئة. وفي ضمن ذلك حاكمهما إليه وفصل النزاع بينهما بحكمه. ثم شرع بالتعريف بكل طائفة وما تهدف إليه، فرأى أن الطائفة الأولى يذكرون من يدعونهم بغير القرآن بأحزاب وأوراد من وضعهم، لا مما ثبت عن النبي–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–إلاّ قليلاً. ولهم عليهم في أموالهم حق في أوقات من السنة معلومة. والطائفة الثانية: يذكرون الناس بالقرآن فيأمرونهم بقراءته وتدبره، ويبينون لهم معانيه، ويحثونهم على التمسك به والرجوع إليه. ويدعونهم إلى الأذكار النبوية الثابتة في الكتب الصحاح، لرجوعها إلى القرآن لحكم قوله تعالى: ((وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)) [الحشر: ٧]. ولا يطلبون عليهم في ذلك أجراً. والله تعالى يقول: ((قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا)) [الفرقان: ٥٧]. ويقول في آية صريحة صراحة تامة في بيان من يجب أن يتبع من الدعاة: ((اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)) [يس: ٢١]. ومن هم المهتدون؛ هم المتبعون للنبي–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ–لقوله تعالى: ((فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)) [الأعراف: ١٥٨] . واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه في طريق دعوته الخلق إلى الله. وقد ثبت بالقرآن أنه كان يدعو بالقرآن، ويذكر به، وأنه لا يسأل على ذلك أجراً. بان–والحمد لله– بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين، واتضح طريق الحق في

---

[13]– ابن باديس عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 119

[14]– ابن باديس عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 119–120.

الدعوة والإرشاد لمن يريد سلوكه منهما مشيرا بذلك للطائفة الثانية التي رأى أنها أولى بالاتباع وهي غير طائفة الطريق المنحرفة[15]

ثم بين أن المنهج الاسلم للمسلم هو التمسك بالسنة وابتغاء وجه الله تعالى فقال: (إن المسلمين كلهم والحمد لله- أهل إيمان، فليستشعروه عند جميع الأعمال، ولا يخلون من عمل لمعاشهم أو لمعادهم، فليقصدوا بذلك كله وجه الله وامتثال أمره وحسن جزائه. وليقتصروا في عبادتهم على ما ثبت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ليكونوا على يقين من موافقة رضى الله، وسلوك طريق النجاة. فإذا فعلوا هذا وصمدوا إليه وجاهدوا أنفسهم في حملها عليه- كانوا شاكرين مشكورين على تفاوتهم في منازل العاملين عند رب العالمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) [16].

ثالثا-وحدة الأمة: وقد أشار إليها في مواضع كثيرة من تفسيره: ففي الإشارة الأولى نظر إليهم باعتبارهم بشرا بتصفون بصفات الإنسانية التي من خصائصها أن الإنسان مدني بالطبع، ومقتضى هذا أن: (الناس كلهم في حاجة مشتركة إلى بعضهم. وما من أحد إلاّ وله حقوق على غيره، ولغيره حقوق عليه ولهذه الحاجة المشتركة والحقوق الممتزجة كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشري واطراد نظامه. وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس. وعندما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده، بل هي خدمة للمجتمع كله. وبالآخرة هي خدمة له هو في نفسه لأنه جزء من المجتمع وما يصيب الكل يعود على جزئه. فاذا تواردت أفراد المجتمع على هذه التأدية سعدت وسعد مجتمعنا بنيله حاجيات الحياة ولوازم البقاء والتقدم في العمران. أما إذا توانى الأفراد في القيام بالحقوق وقصروا في تأديتها إلى بعضهم فإن الحاجة المشتركة من العلم والثقافة وحفظ الصحة والأخلاق وأنواع الصناعة-تتعطل، وبتعطلها يختل نظام الاجتماع ويعود إلى الانحلال والتقهقر، وينحط بأفراده إلى أسفل الدركات، فلهذا بعد ما أمر الله تعالى بإيتاء حقه-وهو توحيده في عبادته-أمر بإيتاء حقوق العباد، القريب منهم والبعيد.) [17].

ثم نظر إليهم باعتبارهم مؤمنين يجتمعونعلى ما يرضي الله تعالى ورسوله ويتوحدون في ضوئه؛ عند تفسير قوله تعالى: ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)))[النور:٦٢ و٦٣]: استنتج أنه لما كان الاجتماع شرع للمصلحة، والذهاب بدون استئذان حرم للمفسدة؛ فالمشروعية والتحريم دائمان بدوام المصلحة والمفسدة. فأحكام الآية في نظره مستمرة الأحكام عامة للمسلمين، في كل زمان وكل مكان، مع أئمتهم وقادتهم المقدمين منهم فيهم، في كل ما يعرض من اجتماع لصالح عام.

---

[15]- ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 155-157.

[16]- ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 56.

[17]- ابن باديس عبد الحميد، المصدر نفسه ص 78-79

فمن أحكام الآية الكريمة التي استخلصها بفقهه واجتهاده وما أفضت إليه قراءاته لمختلف التفاسير:

١- أن على أئمة المسلمين وذوي القيادة فيهم، إذا نزل بهم أمر هام أن يجمعوا جماعة المسلمين الذين يرجى منهم الرأي والعمل فيما نزل، فلا يجوز لهم أن يهملوا أمرهم ولا أن يستبدوا عليهم.

٢- وأن على المسلمين أن يجتمعوا إليهم ويكونوا معهم، يظاهرونهم ويؤيدونهم، وينصحون لهم، فلا يجوز لهم أن يتخلفوا عنهم، ولا أن يخذلوهم.

٣- وأن على المجتمعين ألا يذهب واحد منهم إلاّ بإذن.

٤- وألا يستأذن إلاّ لعذر ببعض الشأن.

٥- وأن على الإمام أن ينظر في الإذن وعدمه، فيفعل ما هو أولى[18].

وتأكيدا على قيمة الجماعة ووجوب إيجادها والتمسك بها؛ ثم قرر أنه: (إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كان لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة؛ ولهذا قرن الله في هذه الآية بين الإيمان بالله ورسوله، والحديث عن الجماعة وما يتعلق بالاجتماع، فيرشدنا هذا إلى خطر أمر الاجتماع ونظامه، ولزوم الحرص والمحافظة عليه، كأصل لازم للقيام بمقتضيات الإيمان وحفظ عمود الإسلام. وما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلاّ بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه: إما باستبداد أئمتهم وقادتهم، وإما بانتشار جماعتهم بضعف روح الدين فيهم، وجهلهم بما يفرضه عليهم، وما ذاك إلاّ من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم: في مقاومة المستبدين وتعليم الجاهلين، وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين. فعلى أهل العلم-وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من إرث النبوة فيهم-أن يقوموا بما أرشدت إليه هذه الآية الكريمة؛ فينفخوا في المسلمين روح الاجتماع والشورى، في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم، حتى لا يستبد بهم مستبد، ولا يتخلف منهم متوان، وحتى يظهر الخاذل لهم ممن ينتسب إليهم، فينبذ ويطرح ويستغنى عنه بالله وبالمؤمنين.. ولنجعل المصلحة العامة غايتنا والمقدمة عندنا، حتى لا يكون-إن شاء الله- في مصالحنا الخاصة ما يصرفنا أو يشغلنا عنها، راجين من الله تعالى أن يعيننا على ما قصدنا، وأن يوفقنا إلى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولإخواننا، إنه نعم الموفق ونعم المعين)[19].

ويرى أن مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي، وما كان عليه رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- في تنفيذ شرع الله وتطبيق أحكامه، وتمثيل الإسلام تمثيلاً عملياً- تلك المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم، غير أن أعظم الفتنة- فيما نرى -هو ما قاله الإمام جعفر الصادق: (أن يسلط عليهم سلطان جائر) فإنه إذا جار السلطان- وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصرف في شؤونها -فسد كل شيء: فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال، وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدرجات، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء

---

[18]- ابن باديس عبد الحميد، المصدر نفسه، ص 335

[19]- ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 335-336

وهلاك. ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه. هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين–بحسب ظواهره–دينها، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء!! حقاً إن أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على السلاطين الجائرين منها ومن غيرها. وهذا ما يشهد به تاريخها في ماضيها وحاضرها. فما أصدق كلمة جعفر الصادق، وما أعمق نظره فيها!! ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة؟! عليهم الرضوان والرحمة) [20].

فبهذا يخوض الإمام في محاولة بعلاج داء الشرق العضال وهو الاستبداد، فعلى الرغم من أن جهده الإصلاحي كان موجها أكثر للجزائريين وأن تفسيره لكتاب الله تعالى وظفه لإحياء وإصلاح الأمة الجزائرية؛ وكان يفترض أن يقتصر على ما يعانيه الجزائريون من استعمار وتخلف وسوء فهم للدين؛ إلا أن تعامله مع آيات بينات تخاطب عموم المسلمين جعله ينخرط مع نظرائه المصلحين في التصدي للاستبداد[21]، رغم أن الاستبداد السياسي بمفهومه السياسي المشرقي لم يكن للجزائريين عهد به، لكن ابن باديس أبى إلا أن يسهم بقسط في علاج داء الاستبداد ليشد أزر إخوانه المصلحين ويشد عضدهم، فبعد أن دعا العلماء إلى مقاومته فيما سبق؛

قال هنا: (لقد شعر المسلمون عموماً بالبلايا والمحن التي لحقتهم، وفي أولها سيف الجور المنصب على رؤوسهم، وأدرك المصلحون منهم أن سبب ذلك هو مخالفتهم عن أمر نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فأخذت صيحات الإصلاح ترتفع في جوانب العالم الإسلامي في جميع جهات المعمورة، تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم بقطع سببها واجتثاث أصلها. وما ذلك إلاّ بالرجوع إلى ما كان عليه محمد عليه الصلاة والسلام، وما مضت عليه القرون الثلاثة المشهود لها منه بالخير في الإسلام. وقد حفظ الله علينا ذلك بما أن تمسكنا به لن نضل أبداً–كما في الحديث الصحيح– «الكتاب والسنة وذلك هو الإسلام الصحيح الذي أنقذ الله به العالم أولاً، ولا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم إلاّ إذا أنقذه الله به ثانياً. وقد أخذ المسلمون يصيخون أسماعهم ويستجيبون–أفواجاً أفواجاً–لداعي الإصلاح أينما دعاهم. وفي ذلك–والحمد لله–ما يقوي الرجاء والأمل، ويبعث على الجد والعمل)[22].

وعلى الرغم من أن ابن باديس حريص على وحدة الامة المسلمة إلا أنه –حسب بعض الباحثين–وفي ظل هذا الموقف طرح ابن باديس مشروعا للتفريق بين جماعة المسلمين والخلافة الإسلامية، فجماعة المسلمين، وهي رابطة اجتماعية أخلاقية حتمية، بينما الخلافة رابطة سياسية، فإنه يقترح تعدد الأنظمة على مستوى كل شعب، وهذا بناء

---

[20]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 338.

[21]– من أبرز المصلحين الذين اشتغلوا على التصدي للاستبداد السياسي في العالم الإسلامي وكتبوا في مظاهره وآثاره وطريقة التخلص منه المفكر عبد الرحمن الكواكبي، راجع مقولاته ومشروعه الإصلاحي في: الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم أسعد السحمراني، دار النفاس، ط3، 1427هـ/2006م

[22]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 339–340.

على تفريقه بين القومية والجنسية[23]. وهو ما يعد سبقا تاريخيا في فلسفة الحكم في الإسلام من قبل فقيه يفترض أن يكون تقليديا.

رابعا– دعوة الأمة للتمسك بالقرآن الكريم: لقد كان ابن باديس يعلم منذ البداية أن القرآن الكريم هو الكفيل بإحياء الأمة الجزائرية وبعثها من جديد لتستأنف رسالتها الدينية والوطنية والحضارية، وما لم تعد للقرآن مركزيته في المنظومة الاجتماعية فلن يتحقق ذلك؛ لذلك توجه باكرا للاشتغال على هذا الهدف، وهو ما يفسر لنا لماذا سخّر لتفسير القرآن الكريم مشافهة ربع قرن من حياته، فالقرآن هو المرجع الأساس للأمة الجزائرية في دينها وعقيدتها وأخلاقها ولسانها؛ وهو الدواء الشافي لكل أمراض وعلل الأمة الجزائرية خصوصا وأمم الكون عموما؛ فقال عند تفسير قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)) [يونس: ٥٧]: (القرآن هو شفاء للاجتماع البشري، كما هو شفاء لأفراده: فقد شرع من أصول العدل، وقواعد العمران، ونظم التعامل، وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي، والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله. شفاء العقائد والأخلاق. شفاء العقائد والأخلاق أساس الأعمال والمجتمع. هذه الأمراض لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو شفاء لها. ولا شفاء لها إلاّ بالقرآن، والبيان النبوي راجع إلى القرآن. ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلاّ مرضا. فهذه الأمم الغربية بسجونها، ومشانقها، ومحاكمها، وقوتها، قد امتلأت بالجنايات والفظائع المنكرة التي تقشعر منها الأبدان. وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق، مثل أولئك؛ وما ذلك إلاّ لأنهم داووا الملك بدواء القرآن فكان الشفاء التام) [24].

وبين أن العودة إلى القرآن سبيل النجاة؛ فقال عند تفسير قوله تعالى: ((وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرى، مهجورا)): (((وقال الرسول يا رب إن قومي ...)): أن لا نجاة للمسلمين من هذا التيه إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم تعلما واهتداء. وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه. والتفقه فيه وفي السنة النبوية وشرحه وبيانه. والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد، وصحة الفهم، والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين، والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين [25].

ودعوة الامة إلى التمسك بالدين وجعل القرآن الكريم منطلقا للإصلاح هو مسلك رواد الإصلاح الذين عاصروا ابن باديس؛ ومنهم شيخه محمد الطاهر بن عاشور الذي يقول: (لاشك أن أثر الدين الصحيح هو إصلاح القوم الذين خوطبوا به، وانتشالهم من حضيض الانحطاط إلى أوج السمو على نحو مراد الله من الدين ومن الأمة المخاطبة

---

[23]– أمين شريط، الدولة والتنظيم الدستوري للسلطة السياسية في فكر ابن باديس (مقال) ص 208، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد: 4، رمضان 1413هـ/مارس 1993م، ص221.

[24]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 143-144.

[25]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 175-176.

به، على حب حكمته سبحانه، وكم كان للأديان الإلهية من أيد في صلاح البشر وفي تكوين الجماعات الصالحة، ليحصل من صلاح الأفراد والجماعات صلاح المجموع كله عند الأمد المعلوم)[26]

خامسا–الدعوة لتميّز الأمة المسلمة ومنها الجزائرية: حيث دعا عند تفسيره لقوله تعالى: ((قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا)): إلى البراءة من أهل الباطل، وذلك بإعلان المباينة لهم، والمخالفة لهم في عملهم، وما انبنى عليه عملهم بأسلوب المناصفة كما تشير إلى ذلك الآية [27]. ومن مقتضيات هذا التميز أن لا تتحاكم للسطات القائمة وتهرع اليها؛ فقال عند تفسير قوله تعالى: ((ففروا إلى الله..)): (إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا فأما إحداهما فالتجأت إلى السلطان تستغيثه، وتستعين به، وتحطب في حبله، فأغاثها وانتقم لها، وأمدها وقربها وأدناها. وأما الأخرى فلم تستغث إلاّ بالله ولم تستنصر إلاّ به، ولم تعتمد إلاّ عليه، ولم تعمل إلاّ فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام، وما فيها من خير عام لجميع الأنام، وتحملت في سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الطائفة الأخرى ومن تولته وهربت إليه. إذا رأينا هاتين الطائفتين عرفنا منهما–يقيناً– الفارة من الله، والفارة إليه؛ فكنا– إن كنا مؤمنين– مع من فر إلى الله) [28].

سادسا–التأكيد على اللغة العربية والقومية العربية، وبيان أهمية العرب في تاريخهم: لقد عمل الاستعمار على تشويه تاريخ العرب لقطع علاقة الجزائريين بهم، ولإضعاف النفوس ودفعه لتتبرأ من تاريخهم والاستحياء من الانتماء اليه، حيث نفت عنهم كل حارة وعمران بل إن بعض المؤرخين القدامى ضللوا القراء بمثل هكذا أفكار حين نفوا عن العرب قدرتهم على تشييد الممالك والعمران الكبير والسبق في علوم فادعى بعضهم أن العمران والعلوم من صناعة العجم

فانبرى ابن باديس لتفنيد هذه المغالطات منطلقا من القرآن الكريم، فجعل الاهتمام بتاريخ العرب واجبا شرعيا؛ فقدم محاضرة أدرجت في خاتمة تفسيره حول اللغة العربية وتاريخ العرب وحضاراتهم منطلقا من القرآن الكريم، حيث رأى أنه حق على كل من يدين بالإسلام ويهتدي بهدي القرآن أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيتهم، وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام، معللا ذلك بأسباب منها: ارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام ودعوته، وعناية القرآن بهم في الكثير من آياته، واختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام، وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض. فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالإسلام، فلأن العرب هيئوا تاريخياً لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية، ولأن الله–الحكم العدل الذي يضع الأشياء في مواضعها بحكمة، ويأمرنا أن ننزل الناس منازلهم في شريعته– ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة: إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلاّ الجليل من الأمم والرجال.

---

[26]–محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص9.

[27]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 150.

[28]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 363

وأما عناية القرآن بالعرب، فلأجل تربيتهم، لأنهم هم الذين هيئوا لتبليغ الرسالة، ولهذا نجد كثيرا من الآيات القرآنية في مراميها البعيدة .. إصلاحاً لحال العرب، وتطهيراً لمجتمعهم، وإثارة لمعاني العزة والشرف في نفوسهم[29].

ثم بين مدى اهتمام القرآن الكريم بالعرب؛ وكشف عن الآيات التي يذكر بها العرب أن القرآن أنزل بلسانهم مثل: ((إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)) [الزخرف: ٣]، والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب. ومن أولى القصد إلى العرب والعناية بلسانهم، وتنبيههم إلى أن القرآن أنزل بلسانهم دون جميع الألسنة–جلبًا لهم، حتى يعلموا أنه أنزل لهم وفيهم، قبل الناس كلهم. إن العرب قوم يعتزون بقوميتهم، وهم قوم ذوو عزة وإباء؛ فكان من حكمة القرآن أن يجلب نافرهم، ويقرب بعيدهم؛ بأن هذا القرآن أنزل بلسانهم. ومن مظاهر ذلك أيضا توسعة الله في قراءة القرآن على سبعة أحرف، وهي اللهجات التي تجتمع على صميم العربية، ومن مظاهر ذلك أيضاً إشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم: ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)) [التوبة: ١٢٨]. ثم بين خصائص الطبيعة العربية؛ وكشف أنها لا تخضع للأجنبي في شيء، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها. ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف، ويحدثها كثيراً عن أمة اليهود التي لا يناديها إلاّ ببني إسرائيل؛ تذكيراً لها بجدها الذي هو مناط فخرها كل ذلك لأنها أمة تحيا بالشرف والسمو والعلو. ويذكرها بالذكر وهو في لسانها الشهرة الطائرة والثناء المستفيض، يقول تعالى لنبيه وهو يعني القرآن: ((فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)٤٣ (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ)) [الزخرف: ٤٣، ٤٤]. والأنبياء لم يبعثوا إلاّ في مناسب الشرف، ومنابع القوة، ومنابت العزة ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها، وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين. فقوله تعالى: ((وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ)) [الزخرف: ٤٤]، ليشعرهم أن عليهم من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذي أعطوه ما ليس على غيرهم. وإنما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس، وهو إحياء الشرف الإنساني في نفوسها، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم. ليخلص إلى القول: أن عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر. وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة في اختيار الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل. وهذا السر هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذي هيأهم لذلك، ولو كانوا أذلاء لما تهيأوا لذلك العمل العظيم؛ وهذا هو الواقع. فإن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله، وأن تظهر دين الله على الدين كله[30].

ثم كشف ابن باديس أن الله كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة، وترجمان هذه النهضة، ولا عجب في هذا؛ فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبداً بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها[31].

---

[29]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 389

[30]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 389 وما بعدها

[31]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 392

وحاول في هذه المحاضرة تصحيح معلومات مغلوطة عن العرب لأن العرب مظلومون في التاريخ، فإن الناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجاً لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الإسلام فاهتدوا به، فأخرجهم من الظلمات إلى النور. هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوهة، ويزيد هذا التخيل رسوخاً، ما هو مستفيض في آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب؛ ليحذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم. والحقيقة التي يجب أن أذيعها في هذا الموقف هي: إن القرآن وحده هو الذي أنصف العرب، والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرتهم التاريخية إلى العرب، فنشأ ذلك التخيل الجائر عن القصد. ثم ضرب أمثلة من الأقوام العربية التي ذكرها القرآن وعمرت طويلا وبين كيف أشأت هذه الأقوام عمرانا شاسعا ممتدا وحضارة راقية وصناعات وحرف، ومنها: عاد وثمود إرم ذات العماد وحضارتها: وحضارة اليمن وسبأ[32].

وفي قصة ملكة سبأ في القرآن استخلص قواعد في الحكم الراشد منها:

١ – نظام الشورى صريحاً لا مواربة فيه.

٢ – وأن بناء الأمم إنما يعتمد على القوة، وقد تكون مؤنثة فلا بد أن يسندها بأس شديد.

٣ – وأن الملأ هم الأشراف وأهل الرأي، وهم أعضاء المجالس الشورية ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعي أو الوراثي، وهو لا يكون إلاّ في الأمم التي شبت عن طوق البداوة[33].

خاتمة

بعد محاولة إبراز دور درس تفسير القرآن الكريم لابن باديس في المحافظة على المرجعية الوطنية نخلص إلى النتائج الاتية:

1- لقد كان للدرس الباديسي في التفسير أثرا علميا كبيرا في بيان مقومات المرجعية الوطنية وعناصرها والمحافظة عليها

2- رصدت من استقراء تفسير ابن باديس المطبوع ستة مظاهر للحفاظ على المرجعية؛ أهمها: دعوته للتمسك بالدين والوحدة والاجتماع واللغة العربية والتمسك بالكتاب والسنة والمرجعية العقدية السليمة والتميز بالشخصية

3- لقد استفاد الإمام ابن باديس من جهود المصلحين وأسهم معهم أيضا في الإصلاح الإسلامي عالميا

4- تأثر ابن باديس أكثر بمحيط الإصلاح التونسي بحكم دراسته وتدريسه هناك لكنه تأثر أيضا بالحركة الإصلاحية بالمشرق

5- على الرغم من أن ابن باديس انشغل بالتصدي العلمي الفكري للاستعمار إلا أن ذلك لم يمنعه من الإسهام مع المصلحين المسلمين في التصدي للاستبداد السياسي.

قائمة المصادر والمراجع

---

[32]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 393 وما بعدها.

[33]– ابن باديس عبد الحميد، مصدر سابق، ص 400

القرآن الكريم

1- أمين شريط، الدولة والتنظيم الدستوري للسلطة السياسية في فكر ابن باديس (مقال) ص 208، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد: 4، رمضان 1413هـ/مارس 1993م

2- ابن باديس عبد الحميد، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، المحقق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية بيروت-لبنان. ط1، 1416هـ/1885م، ص 51.

3- خير الدين التونسي، كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ص 5-6، ط1، 1383هـ، مطبعة الدولة بحاضرة تونس

4- رشاد الإمام، التفكير الإصلاحي في تونس في القرن التاسع عشر إلى صدور عهد الأمان، ص 19 وما بعدها، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ط2، 2010م

5- الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم أسعد السحمراني، دار النفائش، ط3، 1427هـ/2006م.

6- محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر

7- محمد وقيدي، الإصلاح والتنوير، (مقال)، ص45-48، ملتقى الاجتهاد والتجديد بتونس

8- موقع: عبد الحميد بن باديس: https://binbadis.net/archives/470